د. أوريدة عبود ـ جامعة مولود معمري تيزي وزو ـ الجزائر
abboudourida@yahoo.fr

المثقف في الرواية الجزائرية المعاصرة / من الأزمة ... إلى الهزيمة

The intellectual in the contemporary Algerian novel / From crisis... to defeat

تاريخ الاستقبال / Date de soumission	تاريخ القبول/ Date d'acceptation
19.02.2019	12.05.2019

تاريخ النشر / Date de publication

08.05.2020

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أزمة المثقف في الرّواية الجزائرية، من خلال الأعمال التي حاولت أن تعكس ما يتعرض له المجتمع، حيث بلورت ملامح وجه الأزمة الجزائرية وإماطة اللثام عن كل دقائقها، وتقاسيم وجهها بفعالية فنية تعكس عمق التجربة وجمالية التعبير ، وعالجت موضوع المثقف الذي طالته يد الأزمة بالدرجة الأولى لأنه يمثل صوت الحق الرّافض لأي تغيير سلبي على المجتمع المثقف، الذي كان له رأي مناهض ومندد لما يحدث في الجزائر.

الكلمات المفتاحية

المثقف، الأزمة، الصّراع، غياب القيم، الهزيمة.

Abstract

This study aims to reveal the crisis of the intellectual in the Algerian novel, through works that tried to reflect what the society is exposed to. It crystallized the features of the Algerian crisis, revealing all its minutes, and cutting its face with artistic effectiveness that reflects the depth of experience and aesthetic expression. The crisis was first and foremost

because it represents the voice of the right that rejects any negative change to the educated society, which had an opposing and condemning view of what is happening in Algeria.

key words

cultured, crisis, suffering, violence, conflict, alienation, collapse, indeed, the absence of values, defeat.

مقدمة

شهدت مرحلة التسعينات من القرن الماضي انبثاق حقل روائي جديد مثلته مجموعة نصوص روائية،تصور المصائر الفردية والجماعية في ظل الأوضاع المفجعة التي شهدتها الجزائر، وحاولت هذه النصوص أن تؤسس لنص روائي يبحث عن تميز إبداعي مرتبط ارتباطا عضويا بتميز المرحلة التاريخية التي أنتجته وبالواقع الاجتماعي الذي شكل الأرضية، فاستطاع من خلالها الروائيون أن يستلهموا الأحداث والشخصيات: "لتفضح المسكوت عنه وتندد بقتل ذاتية الإنسان الجزائري وتصور وضعية المثقف الذي وجد نفسه سجينا بين نار السلطة وجحيم الإرهاب، سواء كان أستاذا أم كاتبا أم صحفيا أم موظفا، فإنهم يشتركون جميعا في المطاردة والتخفي وهم يشعرون أن الموت يلاحقهم(01).

عبّرت الرّواية الجزائرية عن مخاوفها وهواجسها من خلال الأعمال التي حاولت أن تعكس ما يتعرض له المجتمع، حيث كشفت ملامح وجه الأزمة الجزائرية وإماطة اللثام عن كل دقائقها، وتقاسيم وجهها بفعالية فنية تعكس عمق التجربة وجمالية التعبير من خلال السرد الروائي المحكم والمتقن، وعالجت موضوع المثقف الذي طالته يد الأزمة بالدرجة الأولى لأنه يمثل صوت الحق الرّافض لأي تغيير سلبي على المجتمع المثقف، الذي كان له رأي مناهض ومندد لما يحدث في الجزائر.لهذا يطرح بحثنا جملة من الأسئلة:

- ما مفهوم المثقف؟
- كيف رصدت الرواية الجزائرية وضع المثقف؟
- كيف واجه المثقف محنته و محنة وطنه؟

لدراسة ظاهرة أزمة المثقف ارتأينا إلى اختيار المنهج الاجتماعي، ذلك أن الخطاب الروائي الجزائري عبر دائما عن معطيات الواقع الاجتماعي من خلال زوايا متعددة، حيث شكل الواقع الذي يسعى إلى نقله وتفسيره المرجعية الأساسية له، واختار الاهتمام بالمضمون

واستيفائه من عمق المجتمع الجزائري، بمعالجة قضاياه المتشعبة وموضوعاته المرتبطة بمختلف السياقات السياسية والتاريخية التي عرفتها الجزائر.

1. في مفهوم المثقف

المثقف رجل علم ومعرفة وموقف حضاري، وصاحب ملامح وأبعاد عامة في المجتمع، ينزع باستمرار إلى تقديم حكمته وذكائه فينمي مواقف اجتماعية ومصالح جماعية قوية، الأمر الذي يجعل له وجهة نظر موضوعية وكاملة تجاه مجتمعه."فهو كائن يحيا وسط الأزمة، فهو بصفته يهتم بشؤون الحقيقة والحرية والعدالة، وسواها من القيم العامة، ينتعش بإثارة المشكلات، ويتعيش من الكلام على الانتهاك، الذّي تتعرض له الحقوق والحرّيات، هذا دأبه منذ تكوّن نمطه وتشكّل مفهومه"(02).

إن: "المثقفين يمارسون دورا حيويا ومهما في تكوين وبناء الإيديولوجيات وفي تدعيم الموافقة والقبول، وكما أن التماسك الاجتماعي وظيفة يقوم بها البناء الاجتماعي فإنه -أي التماسك الاجتماعي- أيضا وظيفة للمثقفين في المجتمع"(03).

يعرف المثقفون كفئة اجتماعية بدورها الاجتماعي: "إنهم المنتجون المباشرون للدائرة الإيديولوجية، هم المبدعون للإنتاج الثقافي الإيديولوجي، لذلك يتمتعون بمكانة خاصة داخل ما يسمى عملية الإنتاج الإيديولوجي مكانة المنتج السريع المختلف عن المقاول والإداري والموزع للإنتاج الثقافي. بهذه الكيفية يدخل ضمن فئة المثقفين كل من الكتاب والفنانين والشعراء والفلاسفة والعلماء والباحثين والإشهاريين والفقهاء وبعض الصحافيين والأساتذة وبعض الطلبة"(04). لكن المثقف يعيش وضعا ماديا لا يتناسب مع مكانته وتضحياته، كأنه يعيش تجاهل السلطة له فلم يحظ بمساعدة مادية من الدولة، ما عدا أجره.

فمشكلة المثقف والمجتمع تكمن في عدم ثقة هذا الأخير فيه، الأمر الذي جعل المثقف لا يستطيع أن: "يجسد مثله الأعلى في الإصلاح ليحقق غايته المنشودة بسبب انعدام التفاعل بينه وبين مجتمعه الذي ينتمي إليه"(05).

2. المثقف/التجريد الثقافي و الفكري

لقد بلورت الرواية الجزائرية موقف المثقف الجزائري وصورت الأحداث التي مر بها والآلام التي ألمت به، فرواية "الشمعة والدهاليز" لطاهر وطار"(06) (1995) هي بداية الأزمة، تتحدث عن بداية الانحراف الذي كان عقب الاستقلال مباشرة حيث استحوذت فئة قليلة على خيرات البلاد ووزعت الأملاك بين أصدقاء الأمس بحجة الشرعية الثورية.

بطل الرواية الشاعر وهو مثقف ماركسي في الرابعة والأربعين من عمره يعاني من ازدواجية صارخة، اشتراكي في قوله ورأسمالي في فعله.

ويساير المشهد الروائي الجزائري الأيام الحالكة للأزمة ويظهر ذلك في رواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج"(07) (1997)، فهذه الرواية تصور لنا معاناة البطلة مريم التي ترمز للمرأة الجزائرية الصامدة، ويرجع سبب هذه المعاناة إلى النظام والتيار المعادي لكل مظاهر التقدم والتحضر.

نهاية مريم وهزيمتها هي نهاية الحركات الرشيقة والطلاقة والعفوية. سيدة المقام هي انغلاق الأفق، هي الذاكرة المعذبة، هي نهاية عذاب القلم والحلم.

تأتي رواية "الانزلاق" لحميد عبد القادر"(08) لتكتب شهادات على انحرافات خطيرة، تجسد الرواية ضياع جيل بأكمله.

- عبد الهامل: شاعر وصحفي عمره ثلاثون سنة، يحيا حياة رعب وخطر يعيش في نزل فقير مع كثير منن الصحفيين المهددين بالقتل.

- صالح: هاجر إلى فرنسا بعد أن تيقن أنه لا مكان للمثقف في بلدته الكئيبة (الأئمة الجدد يتوعدون بالقتل وحراس الثورة يهددون بالتهميش).

- أيوب: إنسان تعيس جدا طرد من باريس على إثر صعود حكومة اليمين، يفكر في الانتحار لكي ينقذ نفسه من الخراب الكلي الذي يحيط به منذ سنين طويلة.

جاءت بعد ذلك رواية "المراسيم والجنائز(09) (2000) لبشير مفتي، لتعبر عن ذات اكتوت بنار الألم والعنف: "ذات معذبة ومتميزة في رؤيتها وعذابها وفي تعاملها مع الشخصيات التي تتحرك على الرقعة الروائية، وهي تجسد في وجه من وجوهها محنة المثقف وتترجم أيضا ثقافة الوطن الممحون"(10).

رواية المراسيم والجنائز عبارة عن انسداد الأفق تدور أحداثها حول شخصيتين محوريتين:

- أستاذ ب: أستاذ جامعي وصحفي يشاهد الأحداث ويبصر بعيونه عيوب البلاد.

- فيروز: الشخصية النسوية الواعية والقوية، صحفية تكتب في القسم الاجتماعي عن المرأة، سافرت إلى الخارج لتواصل دراستها، فهي ترى أن مستقبلها أهم من كل شيء، أهم من مغامرة عاطفية عابرة، وأهم من قصة حب كبيرة.

الرواية بحث عن الحقيقة في زمن العنف، ومضامينها تتدرج من الواقع المادي إلى التجريد الفكري والثقافي، والرواية هي تجسيد للصراع بين الذات والآخر، بين الذات وذاتها.

وتتطور فعالية الكتابة الروائية في معالجة الواقع الجزائري، ويظهر ذلك في رواية "وادي الظلام" لعبد المالك مرتاض(11) التي عالجت قضية المثقف وموضوع الازمة الجزائرية بكل جرأة وشفافية على جميع المستويات، سواء على المستوى اللغوي الذي حشد له مرتاض الكثير من

الألفاظ التي زادت مع العشرية السوداء وكثر استعمالها، أو على مستوى الاحداث المفرغة التي ارقت الذاكرة الفردية والجماعية.

تطرقت رواية "وادي الظلام" إلى التحولات التي حدثت على البنية الاجتماعية وتشكلت في انتشار أحداث الاغتيالات وعمليات الخطف للنساء والمثقفين من طرف الجماعات المسلحة التي تمركزت في قمة جبل السباع لتتخذه حصنا منيعا لتنظيمها.

رواية "وادي الظلام" تحكي تاريخ الجزائر الذي روته امرأة تسمى زينب .تروي لفتيات وشباب قبيلة الجلولية تاريخها ومعاناتها وأنظمتها في الحكم واحتلالها من قبل بني فرناس، وكيف دافع سكان الجلولية عنها فأخرجوهم من أراضيهم التي أرادوا استغلالها والاستيلاء عليها، كما روت عن الارهاب والاغتيالات التي عرفتها الجلولية، لكن بفضل وحدة أفرادها استطاعوا القضاء على القاعدة المحصنة التي سكنها الارهابيون كما قضوا على بني فرناس سابقا(12).

3. المثقف/ التهميش و الاستلاب

تعرضت رواية "وادي الظلام" لشخصية المثقف بمنتهى الواقعية، وتعمقت في إعطاء صورة للمثقف الجزائري المأزوم والمهزوم أمام السلطة الحاكمة وتهميش المجتمع له.فقد حمل هذا المثقّف في رأسه أفكارا، واعتقد بأنّها أفكار لا بد من بثّها، لتطوير الحياة وأشكالها، لكن حين هم بنشرها، صدمته العوائق، التّي حالت دون ذلك النّشر(13)، فتعامله مع قضاياه ومع الواقع يشهد على فشله وهامشيته.

جسّد شخصية المثقف في هذه الرواية المعلم "أحمد" الذي يملك هموما عامة وخاصة، لكنه لا يستطيع أن يتفاعل مع الأحداث ومع مجتمعه لأنّه يعاني من استلاب اجتماعي، لذلك نجده في نهاية الرواية ينهار أمام صعوبات الحياة، يتعثر في واقعه ومعناه، ليتحول إلى صورة لأناس فقدوا أنفسهم تلبية لرغبات النفس وجريا وراء أيسر السبل لجني المال، فيكون مثقفا مأزوما ومهزوما، يحاول أن يغير مجرى حياته تاركا وراءه عبء العلم والتعليم. وبالرغم من هذا فإن المعلم فاعل بحركته وارتباطه الوثيق بالمجتمع والحياة نتفاعل معه ونحيا عذابه وهو يواجه الفقر والجوع:

يقول الروائي: "وكان بالجلولية كتاتيب قرآنية، ومدارس تعليمية، يختلف إليها الأطفال وكان بها حفظة للقرآن يحفظونهم سورا منذ سنهم المبكرة. أما المعلمون فكانوا يلقونهم فيها مبادئ العلوم الأولى. وكان من بين أشهر معلميها إطلاقا المعلم أحمد الذي كان أهل الجلولية يلقبونه بالأستاذ الفيلسوف، لغزارة علمه، ولسعة إطلاعه، ولكثرة مقروءا ته من الكتب. غير أن أحمد المعلم بعد أن عمم عشرين عاما قرر أن يتحول في حياته فيغادر مهنة التعليم ليكون بعد ذلك تاجرا"(14).

لقد عملت الرواية على تجسيد أحداث المأساة الوطنية، وأزمة ومعاناة المثقف الجزائري في ظل تلك الأحداث الشائكة، التي نتج عنها صراع بين أفراد مختلف ضاع المثقف وسطها وفقد دوره الحقيقي في النهوض والاسهام الفعال في بناء مجتمع راق.

"كان أبو عائشة رجلا في بداية العقد الخامس من العمر، وكان قبل أن يصبح تاجرا، معلما في المدرسة الابتدائية، ظل بها طوال عشرين عاما تقريبا. فكان التعب لا يزال ينخر أعصابه. وكان يشتكي حنجرته طول الدهر لكثرة ما يتحدث بها إلى الأطفال. ولكثرة ما يصرخ بها فيهم خصوصا! كان عدد الأطفال لا يزال يتزايد في قسمه كلما تقدمت به السن في التعليم... فلم يزل العدد يتكاثر إلى أن جاوز الستين...

كان المعلمون حين تجمعهم ساحة المدرسة أثناء الاستراحة يحاولون أن يخوضوا في القضايا التي كانوا يصفونها بالعليا وهم غير قادرين على أن يغيروا من الأمر شيئا...فكان بعضهم ربما سخر –أثناء ذلك- من نفسه ومن زملائه وما هم عليه من البؤس والفقر والحرمان...فيتضاحك أصحابه منه تنفيسا ويفترقون يائسين بائسين!...

وكان أحمد المعلم لكثرة ما قرأ من كتب الدين والسياسة والتاريخ والحضارة والأدب والاقتصاد والفلسفة وعلم الاجتماع كثيرا ما يثور على الأوضاع الاجتماعية المتخلفة، كما كان لا يتردد في إبداء رأيه في بعض المعتقدات البالية التي يروجها الجهال في الجلولية على أنها من الدين الصحيح وهي، في حقيقتها، ليست منه في شيء!... ولذلك لم يسلم في أعوام الفتنة من التعرض لمحاولة اغتياله. وهو إلى الآن لم يصدق كيف نجا من تلك المحاولة الفاشلة الشنيعة"(15).

رسمت لنا رواية "وادي الظلام"المثقف وعلاقته بالواقع الاجتماعي الذي يحيا فيه، حيث يجسد الرفض الحاد لما يحصل في الواقع الجزائري. فالعمل الروائي يصوّر: "المجتمع بتنوع شخصياته وأمزجته واختلاف المستويات العلمية والثقافية لأفراده، العمل الروائي هو الناس في أحزانهم وأفراحهم، في متاعبهم وهمومهم اليومية والحياتية، في جدهم وهزلهم وهمومهم، في طقوس الحزن والفرح التي يمارسنها في الحياة، في مأكلهم ومشربهم وتقاليدهم وعاداتهم المتنوعة.والرواية هي العصر والأحداث والشخصيات وقضايا الحياة اليومية والمكان والزمان، وهي (رحلة سياحية) يأخذ الروائي فيها بيد القارئ منذ بدايتها حتى النهاية"(16).

يحيا المعلم أحمد حالة من التناقض والتردد. فعلاقته مع الحياة الراهنة آلية، ما جعله قلقا مضطربا لاسيّما عندما يواجه انهيار قناعاته وأحلامه، فكل شيء يقوم على المادة بالدرجة الأولى، لهذا يستسلم هذا الصوت لمجتمع يهمش المثقف، فيتحول إلى ضحية عاجزة في قبضة مجتمع يرفض كل اختياراته وكل طموحاته، لذلك تحول من معلم مثقف إلى تاجر منافق ليساير اعتبارات المجتمع:

"لم يعد أحد يحترم المهن الثقافية والتعليمية في مجتمع الجلولية... كما لم تعد تجلب لأصحابها إلاّ الفقر والحاجة... رفض المعلمون الاستزادة من العلم. ورفضت المشيخة العليا أن تشجع العلماء... أصبح أحمد ناشزا في سيرته معهم. أمسى غريبا بين المعلمين كصالح في ثمود!هو يقرأ كثيرا، حتى أصبح يطلق عليه بعض زملائه الفيلسوف طورا والأستاذ طورا آخر. وإن لم يكن هو في نفسه إلا متعلما صغيرا... أن يغادر أحمد مهنة التعليم، شيء جميل، لكن كيف؟ وماذا سيفعل"(17).

المثقّف لا يرضى بالواقع، لأنّ ما يقع دوما مخالف لما يجب أن يكون للمثل والنماذج التي يتخيّلها المجتمع والعالم، ولهذا نجد أنّ المثقفين يعانون من الاستلاب الذي تمارسه عليهم الدوّل والأنظمة، وحيال هذه الوضعية التي تسلب المرء إرادته وحريته أو هويته وطموحاته يجد المثقّف نفسه أمام خيارين؛ إما أن يسعى بفكره ومواقفه إلى تغيير الحال، كما يفعل عادة المنخرطون في مشاريع الإصلاح والتغيير، وإما أن يختار العزلة، لكي يمارس هامشيته وغربته إزاء ما يحدث، معتبرا أنّ لا مجال في هذا العالم لترجمة مُثله وتحقيق تطلعاته.

اتخذ المعلم القرار الأخير في تغيير مهنته بسبب الواقع الهزيل الذي يكون فيه الفرد المتعلم مسلوبا ومسحوقا، فهو ضد هذا التغييب وضد هذا السلب، وهذا الصوت كان يواجه دائما بالإخفاق. فمن غير المعقول لمثل هذا الصوت أن ينجح في تحقيق أي شيء إيجابي لأن كل شيء أمامه سلبي.

رسمت شخصية المثقف بإتقان، ويبدو في هذه الرواية متشائما ناقما من حاله، يائسا في حياته. يبدو ذلك اليأس في سلوكه وحديثه وأمانيه وهذا اليأس تولّد له من واقع محتوم انفرض عليه، فحرمه من الوصول إلى حالة ميسورة له ولعائلته ما جعله ثائرا على واقعه بشكل أو بآخر. فقد كان منتظرا من المعلم أن يكون عظيم الشأن وفي منتهى المثالية بكل ما تحمل المثالية من رضا وقناعة. ولكن ما كان منتظرا وما كان يفهم من سلوكه وتفكيره في بداية الرواية ووسطها، لم يلبث أن تغير فجأة، ذلك أنه ثار على واقعه الشقي. وهذا التغير المفاجئ، هو من حقه وواجبه معا، يجعله صوتا ناميا متحركا، يتمتع بإرادة قوية ومبادرة عالية السلوك وعبر عن سخطه من الانتظار فكان ذلك مجسما في هذا التغير المفاجئ من أجل تحقيق غايته في الحياة...

"لم أعد قادرا على التعليم وكفى!... أليس مقتي من مهنة التعليم مبررا كافيا؟ لم يعد هذا التعليم يوفر لي شيئا، لا اللقمة الدسمة، ولا المنزلة الاجتماعية الكريمة!...لم يعد العلم مفيدا للعلماء أخاف أن يقتلني الفقر، وتصيبني علة قاتلة من كثرة ما أحرق أعصابي كل يوم مع هؤلاء الأطفال وهم يرعنون...أم كنت تريدني أن أنهي حياتي مجنونا من الدرجة القصوى!؟ ألم

تر إلى المعلمين وقد أصبحوا إما مجانين، وإما أنصاف مجانين، وإما هم في طريق الجنون الوشيك، وإما هم في حالة تأهب للوقوع في طريق الجنون مستقبلا...؟"(18).

إنّ عدم الاهتمام بالمثقف سمح لمختلف التيارات من استقطاب المجتمع، والهيمنة عليه مما أدى إلى فتور التجربة الوطنية الإبداعية، حيث أفرغت الظروف التي يعيشها المثقف من محتواه، وجعلته تابعا لا رائدا. جعلته عاجزا عن التأثير في المجتمع لأنه فقد الوسائل الدافعة إلى الإبداع، لم يعد ذلك العنصر الذي يعمل على إنتاج المرجعيات الثقافية والأخلاقية والجمالية، ولم يعد يحمل على عاتقه مسؤولية إنتاج القيم والمثل التي تعطي لأي مجتمع أسباب وجوده، وتميزه واستمراره: "فأزمة المثقف تأتي من رحم البيئة التي يعيش فيها وما هي إلا احدى أزمات المجتمع والغياب الموضوعي لأي مكانة للتفكير الجدي"(19).

4. المثقف وانهيار القناعات

يعالج المثقف قضاياه بوصفها قضايا المجتمع بأكمله، إذ ينطلق من الذات إلى الفضاء الخارجي، وهناك يلامس الواقع الحقيقي الذي يفرض نمطه فهو يواجه مجتمعا بكامله عندما يواجه الإنسان المزروع فيه أولا، وعندما يتحصل له وعي بذاته، يبدأ شقه الطليعي بدفعه باتجاه تصدير الفكرة إلى المجتمع والعمل على تغييره، "ولكنه يكتشف أن ما ينادي به لا يقبله الواقع فيرتد إلى نفسه ليتفاقم حسه الإشكالي، ويبدأ في عملية مراجعة لكل المشكلات الثقافية فيه، ويحاول تلمس آثارها في المجتمع، وهذا الجمع بين الرؤى، لم يكن بوعي قصد القبض على تيار فكري معين، إنما هو تعبير عن قلق عام يجد المثقف نفسه غارقا فيه بحكم املاءات العصر واستحقاقات روحه"(20).

إنّ أوضاع أحمد المادية تنعكس على طبيعة الحياة الأسرية لديه، حيث يتمرد على مآلفه البيتية، "فقد كشف لنا المتخيل السردي عن منظور مأزوم للمثقف ضمن محيطه الأسري فهو مرصود بدقة ضمن دائرة العلاقات الشخصية، ولكنه مهمل فيما يتعلق بدوره وفاعليته الثقافية، فلم يتح لنا أن نتعرف على أفكار المثقف ورؤاه داخل بيته وانعكاس ذلك على محيطه الأسري، وهناك باستمرار حديث عن المظاهر السلوكية، التي لا يفترق فيها المثقف عن أي شخص آخر يحيا ضمن النطاق الأسري المقدم فيه"(21).

لقد أفرز تجاهل المثقف في الجزائر إفراغ المجتمع من مادته الثقافية، وإبعاده عن آفاقه وطموحاته. إن فتح الأبواب أمام أسئلة العجز أدى إلى انحطاط المعاني وانحراف اجتماعي:

"أصبح المعلم أحمد تاجرا يجمع مقدارا صالحا من المال كل يوم، فبدأ يعجب من نفسه كيف فاته أن يفعل ذلك منذ أول عهده بالحياة المسؤولة؟... وكيف قاده قدره المشؤوم إلى أن يحترف مهنة الفقر والحرمان؟ وكيف كان لا يحسب ذلك المقدار القليل من النقود إلا مرة

واحدة في الشهر حين يستلم مرتبه الحقير، فيجزئه، وهو في أصله مجزأ، على تأدية الديون الشهرية، ومنها نفقات دكان الحاج موسى الذي كان مجاورا لمنزله البسيط ومن حيث ما كانت عائشة تشتري المواد الغذائية التي تستهلكها الأسرة أثناء الشهر...فكان لا يفرح بالنقود حين يستلمها على رأس كل شهر، إلاّ لمدة ساعة واحدة... فكان حين يعود بها إلى البيت يوزعها بحسبان على الدائنين الشهريين، فكان بعد ساعة يصبح جيبه خاويا خاليا يعشش فيه القمل والقراد!...

وقبل أن يهتدي أحمد إلى طريقة شيطانية تنجيه من دفع الضرائب إن هو فتح تجارة الجملة في مكان أوسع مما هو فيه، فكر في أن يغير بيته فيشتري أرضا بضواحي المحروسة ثم يبني فيها بيتا أنيقا، وبيته الجديد يؤسس تجارة كبيرة حتى لا يكتري المتجر من سواه بأغلى الأسعار. غير أنّه بدأ يفكر، أثناء ذلك، بطريقة التجار الكبار... ولما سيكون هو بدعا منهم؟ ألم يمس تاجرا مثلهم؟ أليست أمواله بدأت تتكاثر، تتكاثر كالدود فماذا سيصنع بها؟ فكر في أن يتزوج فتاة صغيرة السن بعد أن بدأت الشيخوخة تدب إلى زليخا المسكنة التي عاشت كل أيامها الشقية معه في الفقر والحرمان"(22).

عني "مرتاض" بمناقشة أزمة المثقف في بعديها الفكري والإبداعي في ظل واقع اجتماعي متأزم، أما بخصوص فنية العمل الأدبي، فإن مبدأ تعميم الحياة في النماذج الفردية، وتجسيد العام في الخاص يملكان أهمية كبيرة، ذلك لأنّ الفن قادر على إعطائنا القدرة على قراءة العام من خلال الخاص بطرحه مجموعة من الرموز والدلالات. واعتمادا على ذلك يستوقفنا المعلم أحمد بأبعاده السيكولوجية. سعى السارد للفت الانتباه إلى وضع المثقف ضمن وسط متوتر مرعب انقلبت فيه الموازين .

هذه الأحداث والتهديدات جعلت المثقف يعيش حالة رعب مما جعله غير قادر على القيام بدوره كمثقف لا يفيد بثقافته من حوله: "وهو أخيرا محكوم بالنفي والغربة سواء داخل مكانه أو مكان آخر، فهناك من اغترب غربة الوطن وهناك من بقي واستسلم وفقد الأمل"(23).

لم تتحسن أوضاع أحمد المالية بالرغم من تفانيه وإخلاصه في العمل، ظل يصارع ظروف الحياة القاسية بكل صبر وأمله أن يتحسن قطاع التعليم في الجلولية يوما ما، ويعاد النظر فيه. فأحمد المعلم جزء من شريحة معلمين اكتوت بنيران الفقر والظلم والإحباط. وعندما عجز في الخلاص من أوضاعه، ظهر أمام الواقع مسحوقا ومحطما. إنّه صورة الإنسان المهزوم ماديا وفكريا في القرن الواحد والعشرين. لا يملك المثقف إلاّ رأسماله الرمزي الذي يعمل على توظيفه فكثيرا ما وجد نفسه أمام خيارين صعبين، فإما أن يكون منخرطا فيغدو عضوا

ينطلق برموز القوة، وإما أن يدخل في علائق صراعية ضد الهيمنة من أجل نشد الحرية والعدل والتغيير.

بدا المعلم أحمد فاعلا في تحريك العالم الروائي، مشغولا بقضيته، التي هي أزمة اجتماعية، ما جعل المؤلف يحس بمأساة الإنسان الجزائري المعاصر، الناجمة عن غياب القيم والقوانين الموضوعية التي تسمح له بالكشف والإبداع وتأسيس رؤيا أكثر فاعلية.

تعليق ختامي

اهتمت الرواية الجزائرية بمناقشة أزمة المثقف في أبعادها الفكرية و الإبداعية في ظل واقع اجتماعي متأزم؛ فكشفت عن ملامح الأزمة التي يعيشها المثقف الجزائري بتصوير الأحداث التي مر بها و الآلام التي آلمت به.

- بات المثقّف في أزمة، بعد أن تكشفت المبادئ والنظريات عن عوراتها، في مواجهة الانهيارات والتحوّلات، التّي يشهدها العالم، على غير صعيد، في الوقائع والأفكار، أو في النظم والمؤسسات، وهذا ما جعل المثقف يفقد مصداقيته ويُعرى من أسلحته، فالقيم التي دافع عنها تنهار ولم يحقّق شيئا مما كان يأمل حصوله.

- اهتزّت صورة المثقف الجزائري، سواء في نظر نفسه أو في نظر غيره، إنّه لم يعد يثق بقدرته على تنوير العقول والتأثير في الرأي العام. فما جرى من التحوّلات السريعة والانهيارات المفاجئة، أدى إلى تصدع منظومة القيم الثقافية؛ لأنّ ما جرى كان بخلاف ما يقوله المثقّف أو يطالب به أو يدافع عنه أو ينتظر حصوله، كان يأمل تقد ما على صعيد العدالة وتكافؤ الفرص وحقوق الإنسان ونشر المعرفة، فضلا عن مطالب الأمن والسلام، فإذا النتيجة تراجع مساحة العدالة والحريات، والمزيد من الانتهاك لحقوق الإنسان، وازدياد القدرة على التلاعب بالحقائق وتراكم المشكلات مع انتشار بؤر التوتر وازدياد أعمال العنف والإرهاب. وهذا ما حمل المثقف والمفكر على وضع تجاربه موضع السؤال والفحص.

- لقد فقد المثقّف أهميته وفاعليته، وتحوّلت مهمته إلى مجرد حرفة أو مهنة، وانتهكت الظواهر المستجدة والوقائع المباغتة مشروعيته، وصارت علاقته بالمجتمع علاقة سلبية عميقة، بل مدمّرة في بعض الأحيان، ليجد نفسه في نهاية المطاف واقفا في وسط طريق، أوّله أزمة وآخره هزيمة.

الهوامش

1. حسن خمري (2002)، فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، الجزائر، منشورات الاختلاف، ص 191.
2. على حرب (2004)، أوهام النخبة أو نقد المثقف، الرباط، المركز الثقافي العربي ط3، ص39.

3. محمود محمد أملودة (2010)، تمثيلات المثقف في السرد العربي الحديث، الرواية الليبية أنموذجا، دراسة في النقد الثقافي، الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، ص33.
4. محمد ساري (د ت)، البحث عن النقد الأدبي الجديد، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ص5-6.
5. صالح ولعة (2003)، صورة المثقف في روايات عبد الرحمان منيف، مقال في مجلة الموثق العربي، دمشق، منشورات إتحاد الكتاب العرب، العدد 363، ص07.
6. الطاهر وطار (1995)، الشمعة والدهاليز، الجزائر، منشورات الجمل،
7. واسيني الأعرج (1997)، سيدة المقام، دار الجمل للنشر والتوزيع والإعلان.
8. حميد عبد القادر (1998)، رواية الانزلاق، الجزائر، منشورات مارينور،
9. بشير مفتي (2000)، المراسيم والجنائز، الجزائر، منشورات الاختلاف.
10. مخلوف عامر (1994)، أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، مقال في مجلة عالم الفكر، ع1، دمشق، ص 304.
11. عبد المالك مرتاض (2005)، رواية واد الظلام، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع.
12. يقصد من الجلولية "الجزائر"، التي تملك الثروات الطبيعية، و يقصد ببني فرناس "فرنسا" التي جاءت من وراء البحار واحتلت الجلولية.
13. ينظر : زكي نجيب محمود (1981)، هموم المثقفين، بيروت، دار الشروق، ط1، ص12.
14. وادي الظلام، ص57.
15. وادي الظلام، ص63-68.
16. زهير شليبة (2001)، ميخائيل باختين ودراسات أخرى عن الرواية، دمشق، دار جوران للطباعة و النشر و التوزيع، ط1 ، ص60.
17. وادي الظلام، ص 104- 105.
18. وادي الظلام، ص107.
19. مجموعة من المؤلفين (2000)، جذور أزمة المثقف في الوطن العربي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط1، ص 74.
20. محمود محمد أملودة، تمثيلات المثقف في السرد العربي الحديث، ص255.
21. محمود محمد أملودة، تمثيلات المثقف في السرد العربي الحديث، ص68.
22. وادي الظلام، ص 123- 124.
23. خليل احمد خليل ومحمد علي الكيسي (2000)، مستقبل العلاقة بين المثقف والسلطة، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط1، ص 74.